Archive of SID

مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١٥، العدد ٢، صيف ١٤٤٠هـ
صفحة ١٨٣ – ٢٠٦ (مقالة محكمة)

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
https://jal-lq.ut.ac.ir/

دراسة هرم الحاجات الإنسانية وفق نظرية آبراهام ماسلو في رواية «صخرة الجولان» لعلي عُقلة عُرسان

علي بيانلو*

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة يزد، إيران

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٨/٦/٧ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٩/٣/١٠)

الملخّص

قدّم العالم النّفسي آبراهام ماسلو مراتب متسلسلة من الحاجات المثيرة للإنسان، وهي: حاجات الجسد، والأمن، والحبّ، والاحترام، وتحقيق الذّات. وعلى هذا المبدأ، فارتأينا أنّ رواية "صخرة الجولان" للكاتب السّوري "علي عُقلة عُرسان" (١٩٤٠م) تحتوي على تلك المراتب. تهدف المقالة إلى دراسة مستويات الحاجة وتطبيقها على القصّة وبيان مصاديقها في العناوين المتّفقة مع تلك المستويات، ثم تنقدها وفق الشواهد من حيث أهميتها، وترتيبها، وتسلسلها، وتزامنها، وإشباعها. وتتّخذ المقالة قرارها في أن تبني البحث على أساس الشّواهد الدالّة على مراتب الحاجات كمجموعة من العينات، فتتناول الشّواهد من منظور وصفيّ وتحليليّ معتبرةً الكيفيّة في تحليلها. والنتائج تدلّ على أنّ البطل يحتاج في رفع حاجته الجسدية إلى العمل، ويبأس عندما لايجد العمل الذي يكفي الحاجات. وكلمة الأمن، تتردّد على لسانه إلى جانب الموت، والدفاع. وهو يموت ليدافع عن الوطن وليقرّ الأمن فيه. ويتراوح التّعارض بين الأمن والجوع، وذلك أنّ الحاجات تختلف بين شخص وآخر في ضرورتها. حاجة الحبّ تتجسّد، في البعدين الوطنيّ والأسريّ. والبطل يحنّ إلى الوطن حينا وإلى الأسرة تارةً. وتأتي حاجة الاحترام بنوعين: أوّلاً يحترم الإنسان نفسه، ثم يحترم الآخرين. هناك ثلاثة مفاهيم تمثّل حاجة تحقيق الذّات، وهي ترتبط بالموت بالكبرياء، والاستشهاد، والبطولة. ويختار البطل لنفسه طريق التّفاني ولاتشبع الحاجات إلّا تحقيق الذّات، فعلاً.

الكلمات الرئيسة

آبراهام ماسلو، تسلسل الحاجات، رواية صخرة الجولان، علي عُقلة عُرسان.

---

* الكاتب المسؤول
Email: abayanlou@yazd.ac.ir

www.SID.ir

Archive of SID

مقدمة

وُلد آبراهام ماسلو[1] في بلدة بروكلين من نيويورك سنة ١٩٠٨م، بالولايات المتّحدة، وحصل على درجة الدّكتوراه في علم النّفس من جامعة ويسكانسين، ورجع إلى نيويورك، مسقط رأسه، وقام بالتّدريس في أكاديمية بروكلين حتّى سنة ١٩٥١م، ثمّ درّس في جامعة برنديس من ولاية ماساتشوست حتّى سنة ١٩٦٩م. حاز جوائز ووسامات الفخر العديدة، وعينَ رئيسا لجمعية علماء النّفس الأميركيين، وتمتّع بشعبية كبيرة بين عامّة النّاس. وأصيب بأمراض عدّة منها اختلال المعدة، والأرق، والسأم، والنّوبة القلبية، ومات بسبب هذا المرض الأخير، في ذروة شعبية، سنة ١٩٧٠م (Schultz, 2005: 308-310). وترجع شهرته إلى نظريته في تحقيق الذّات (الطّوخي، ٢٠١٧: ٦)، وقدّم ماسلو مراتب متسلسلة من الحاجات الإنسانية، وهي الفزيولوجيا، والأمن، والحبّ، والاحترام، وتحقيق الذّات (Maslow, 1970: 35-47)، والتي تنتظم في شكل هرميّ. وسمّاها الحاجات الغريزية الوراثية التي حملها الإنسان منذ الولادة، وقديتحكم عليها عامل التّعليم، والتّوقّعات الاجتماعية، والخوف من الطرد الاجتماعي. يتمّ ترتيب هذه الاحتياجات من الأقوى إلى أضعف منها. يجب أن تُشبع أوّلاً الحاجات الضّرورية في قاعدة الهرم إلى أن تشبع الحاجات الكمالية في رأس الهرم. وربّما لاتحفّز الحاجات كلّها الإنسان متزامنةً، بل وتغلب وتسيطر عليه إحداها. والأمر في ذلك يتعلّق بإشباع أيّ منها. ولكن ما لبث أن اعتقد ماسلو بتحوّل الحاجات وتغير ترتيبها ودافعيتها واحتمال تزامنها (Schultz, 2005: 311-312).

مهما تسفّلت حاجة ما في المستوى الأدنى فهي أقوى. وتبقى الحاجات ذات المرتبة العليا ضعيفة في التّحفيز؛ بحيث تظهر الحاجة الجسدية وحاجة الأمن في الطّفولة. وتنكشف حاجة الانتماء والاحترام فترة المراهقة. وتنهمر حاجة تحقيق الذّات منتصف العمر. والحاجات ذات المستوى الأعلى تبقى أقلّ ضرورة في الحياة، وإشباعها تتأجّل. والإحباط فيها لاينتهي إلى التوتّر في السّلوك؛ غير أنّ الإحباط في الحاجات الدّنية يؤدّي إلى التّوتّر. ولذلك سمّاها ماسلو حاجات النّقص، وإشباع الحاجات العليا يؤدّي إلى الرّضى، والفرح، وارتياح النّفس، لدى الأفراد (Schultz, 2005: 312). الحاجات الأربع الأولى من الهرم، تعتبر حاجات النّقص، ولا ينتاب الإنسان شعورٌ إذا توفرّت بسهولة، وهو يضطرب إذا لم يتوفّر شيء منها،

1. Abraham Maslow

www.SID.ir

Archive of SID

ويقلق (مروّتي وآخرون، ١٣٩٢: ١٣٣). وسمّوا الأربع الأولى احتياجات مُفتَقَدة أيضا، دون حاجة تحقيق الذّات، ودعوها احتياجات النّمو (الطّوخي، ٢٠١٧: ٦). وقد تظهر الحاجات في مختلف المستويات متزامنةً؛ لأنّ العقل البشريّ معقّد تعقيدا جدا (Novitović, 2017: 12). وبتصنيف آخر، تتضمّن هذه الحاجات قسمين: الحاجات الأساسية (الفزيولوجيا، والأمن) والحاجات النّفسية التي تأخذ الصّفة الاجتماعية (الحبّ، والاحترام، وتحقيق الذّات). والحاجات الأساسية مشتركة بين الإنسان والحيوان، وفي المقابل يتميز الإنسان وحده بالحاجات العليا (القطناني، ٢٠١١: ١٤-١٥). وتوجد حاجتان أخّرهما ماسلو في المدرّج، وذلك يأتي في الهرم الموسّع، مثل حاجة المعرفة والفهم، والحاجات الجمالية (Maslow, 1970: 48-51). وأضيفت إليهما احتياجات التّفوّق والسّمو، أيضا (الطّوخي، ٢٠١٧: ٧).

مهما كان الأمر فإنّ لكلّ إنسان مجموعةً من نظم التّحفيز. والنّاس مدفعون لإشباع الاحتياجات ولبعض هذه الاحتياجات أسبقية على بعضها الآخر، في تلبيتها. والتّجارب والصّعوبات التي يمرّ بها الإنسان تسبّب للفرد نوعا من التّذبذب بين مستويات الهرم. والشخص قد يتقدّم أو يتراجع بين الأنواع المختلفة من الحاجات نتيجةً لما يقابله في الحياة من ظروف (الطّوخي، ٢٠١٧: ٦).

وعلى هذا المبدأ، ظهر أنّ رواية "صخرة الجولان" تحتوي على المراتب الخمس المتسلسلة من الحاجات. فارتأينا أنّها تلحّ على بطل القصّة وأسرته، بحيث لا يمكن أن يدعها لا تشبع. وخيمت الحاجات ظلالها على فكر البطل في حلمه ويقظته، مذ بداية القصّة.

منهج البحث

تهدف المقالة إلى دراسة مستويات الحاجة وتطبيقها على القصّة وبيان مصاديقها في العناوين المتّفقة مع تلك المستويات، ثم تنقدها وفق الشواهد من حيث أهميتها، وترتيبها، وتسلسلها، وتزامنها، وإشباعها. وتتّخذ المقالة قرارها في أن تبني البحث على أساس الشّواهد الدالّة على مراتب الحاجات كمجموعة من العينات، فتتناول تلك الشّواهد من منظور وصفيّ وتحليليّ معتبرةً الكيفية في تحليلها.

خلفية البحث

تعنى الخلفية بالدّراسات ذات الصّلة بالموضوع من طرفين: الأوّل ما يتّصل برواية "صخرة الجولان"، والثاني ما يرتبط بنظرية تسلسل الحاجات. فتناولت فادية المليح حلواني هذه

www.SID.ir

Archive of SID

الرّواية في مقالتها: «الحامل الإيديولوجيّ في الرّواية» المطبوعة في مجلة المعرفة (١٩٩٨م، العدد٤٢٠) من منظر إيديولوجيّ، وهو بيان رؤية الرّاوي في تكوين عناصر القصّة مثل: الشّخصية، الحوار، الزّمان، المكان و... بشكل مختصر. قام محمّد عزّام في كتابه: «وجوه المآس: البينات الجذرية في أدب علي عُقلة عُرسان» (١٩٩٨م) بدراسة تلك العناصر المذكورة في الفصل الخامس الذي خصّصه لـ«صخرة الجولان»، أيضا، بشكل مفصّل. ودرس سمر روحي فيصل خلال الفصل الأوّل من كتابه: «الرّواية العربية، البناء والرّؤيا» (٢٠٠٣م)، رواية «صخرة الجولان» من منظور الشّخصية القصصية، هي بطل الرّواية، في الأبعاد الإنسانية والاجتماعية والوطنية. وتناولت المستويات الإيديولوجية والنفسية، وطريقة السّرد لتقديم هذه الشّخصية، أيضا (صفحات ١٦٨-١٧٤). هناك رسالة ماجستير باللّغة الفارسية، عنوانها: «بررسي مضامين رمان صخره الجولان اثر علي عقلة عرسان» (١٣٩٥ش)، كتبها الطّالب علي لايقي في قسم اللّغة العربية وآدابها بجامعة يزد. وهو يتناول الرّواية من ناحيتي المضامين الأصلية:(الوطن والأسرة) والفرعية (الاحتلال، الاسترجاع، حقوق الأسرى، الظلم، و...).

وهناك مقالات مطبوعة باللّغة الفارسية، تناولت نظرية آبراهام ماسلو للنّقد والمقارنة. منها: «نقد وبررسي سسلسله مراتبي بودن نيازهاي انسان در نظريه مازلو، با رويكردي بر آيات قرآن كريم» (١٣٩٢ش)، سهراب مروّتي وآخرون، مجله پژوهش‌هاي علم ودين، پژوهشگاه علوم انساني ومطالعات فرهنگي، سنة ٤، العدد ٢. هذه المقالة تذهب إلى أنّ القرآن يخالف تسلسل الحاجات كما أراد ماسلو وتقول إنّ المعنويات لها قيمة في تكوين الإنسان، من منظور إسلاميّ. «بررسي سلسله مراتب نيازهاي مزلو در گلستان سعدي» (١٣٩٣ش)، عليرضا نبي لو واحمد آصف، متن شناسي ادب فارسي (علمية محكمة)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة أصفهان، العدد ٢ (متتابع ٢٢). تقارن هذه المقالة بين آراء الشاعر سعدي الشّيرازي وبين آراء ماسلو في نظرهما إلى الإنسان وحاجاته، وتبين وجهات التّشابه والاختلاف. «درآمدي بر نقد نظريه سلسله مراتب نيازهاي مازلو» (١٣٩٥ش)، محمدرضا سلطاني وآخرون، فصلنامه مطالعات رفتار سازماني، السنة ٥، العدد ١ (متتابع ١٧). هي مقالة تنقد آراء ماسلو وتقارنها مع آراء القرآن والعلماء المسلمين وعلماء النّفس، والإدارة، والاجتماع من الغربيين والإيرانيين.

www.SID.ir

Archive of SID

إذن، لا توجد دراسة تهدف إلى تبيين نظرية ماسلو في تسلسل الحاجات الهرميّ في رواية "صخرة الجولان"، كما قام البحث الجاري بهذا الهدف. ومن ثمّ تطرح الأسئلة التالية.

أسئلة البحث

١. ما هي الحاجات ومستوياتها ذات التّوالي والتّسلسل في هذه الرّواية؟
٢. كيف تحظى تلك الحاجات بالأهمية وبالتّسلسل، وبالتّزامن، والإشباع؟

على عُقلة عُرسان وأدبه القوميّ في رواية "صخرة الجولان"

في نتاج الكاتب السّوري المعاصر، علي عُقلة عُرسان (١٩٤٠م)، نجد إشارات واضحة إلى جرائم عدوّ الوطن، والتي توقظ مشاعر المواطن وتلامس عواطفه القومية، تجاه الوطن ومواطن وما لحق بهما من أذى. والمقاومة والصّمود والثّورة من الموضوعات التي ألهبت عواطف عرسان القومية وأثارت اهتمامه فأبدع فيها وطرحها كحلّ أساسيّ، وهي جزء من حركة عربية ضد الأمبريالية والصهيونية، وشكل رفيع من أشكال النّضال تستخدمه الحركة الثورية العربية في وجه أعداء الوطن لاسترجاع مقدّساته وأرضه ووطنه (نيازي، ١٣٩١: ٥٤).

تُعتبر رواية "صخرة الجولان" قصّةً قومية سياسيةً، في اثني عشر فصلاً يشمل ١٧٢ صفحة. وهي تحكي قصّة البطل محمّد المسعود عندما يتواجد في الخدمة العسكرية الاحتياطية في خنادق الجولان، ويدافع عن وطنه أمام العدوّ الإسرائيليّ، ويقع أسيراً في أيدي الصّهاينة ويواجه التّعذيب حتى الموت. وتتخلّلها قصّة زينب هي زوجة محمّد، والتي تعاني من الحاجة الفزيولوجية الملحّة على الأسرة عند غياب الزّوج، مثل الطّعام والخبز؛ لأنّها لا تجد شيئا يسدّ به جوع الأطفال. وفي أثناء القصّة يلاحق البطل في الواقع وفي مخيلاته احتياجات أخر، منها حاجة الأمن، وتُلزمه أن يدافع عن الوطن لتطمئنّ الأوضاع لحياة الأسرة، فيتابع حاجة الحبّ إلى الأسرة والوطن والتي يشوبها الفراق: فراق إثر عمله في بلد عربي آخر، وفراق يتحمّله ساحة الحرب. وتأتي حاجة الاحترام، والتي يتوقّعها البطل من أهل الوطن لنفسه ولزملائه الذين يبذلون حياتهم فداءً للمواطنين. وتتأخّر حاجة تحقيق الذّات، وهي الهاجس الأكبر لدى البطل، لأنّه يحتاج إلى إنجاز هدف كبير، وفي عقيدته لا يمكن الوصول إليه إلاّ بالتّضحية. ولكلّ من هذه المستويات شواهد كثيرة في هذه الرّواية، كما يلي.

www.SID.ir

Archive of SID

الحاجات الجسدية والفزيولوجية

لا يمكن تصنيف الحاجات الفزيولوجية/ البيولوجية الأساسية تحت قائمة، والأمر في ذلك يكون بلافائدة، ولا يمكن أن نتصوّر بين الحاجات الفزيولوجية توازنا وتعادلاً. ولاشكّ أنّها تحظى بالسّيطرة وتتغلّب أكثر بكثير على سائر الحاجات (Maslow, 1970: 36). هي أكثر الحاجات ضرورةً، وتتمثّل في الطّعام، والماء، والهواء (سليمان عواشرية، ٢٠١٥: ٧) والشراب، والمأوى، والدّفء، والنوم، والجنس (الطّوخي، ٢٠١٧: ٦).

وفي هذه الرّواية، هي تعني فقدان العمل، والمال، والخبز، والطّعام، والشّكوى من الجوع الذي يضني الإنسان. لذلك أصبحت قضية اللّقمة والخبز، منذ بداية القصّة، تشغل خواطر محمّد المسعود ويبدي قلقه من شأنها ويشفق لحال الأسرة ويتصوّر أنّ زينب تتحدّث معه كيف أنّها تؤمّن المعاش: «سَأعملُ حِصادةً عِند عَمّي جابرٍ حتّى نُؤمّن لُقمتَنا ونؤمِّن المؤونة» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٨). ويشكو محمّد المسعود في نفسه من ذلك القلق في حقّ الأسرة، ويتحسّر: «لم يكنْ مَعي قِرشٌ واحدٌ يقيم أودَهم أو يدفعُ غائلةَ الجوعِ عَنهم لأتركه بَينَ أيديهم» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٨). إذن يحتاج الإنسان لرفع حاجته الجسدية (الطعام) إلى العمل والمال، كما تعمل زينب حصادة، وما يفتقر إليه محمّد من قرش.

يخلو محمّد المسعود مع نفسه في ساحة الحرب ويتذكر احتياجات الولد وأولوياته، وهو: «زَيدٌ يحتَاجُ إلى مَلَابِسَ وَإلى أوْرَاقٍ وَمَصَارِيفَ كي يُسَجَّلَ فِي الْمَدْرَسَةِ وَزَينَبُ لاَ يُمكنُها أنْ تُهَيّئَ لَهُ كلَّ شَيءٍ فَهِي لا تَملكُ شيَئا وَكلُّ مَا يُمكِنُ أنْ تَحْصُلَ عليه مِنَ الْعَمَلِ لاَ يكادُ يَكفِيهم ثَمَنا للُقمةِ الْخُبْزِ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٢) ويجب ارتفاع الحاجة الجسدية ابتداءً لأهميتها وضرورتها، والملبس والمأوى يؤمّن كلاهما للإنسان جوا احترازيا عن كثير من الأخطار (Novitović, 2017: 12). والخطر يجلو في قالب الأمية عادةً.

وعسر المعاش يحول دون توفير الحاجة للزّوجة رغم اشتغالها بالعمل إلاّ لقمةً زهيدةً لا تكفي حين يغيب الزّوج. لذلك يتلهّف محمّد المسعود ويقول في نفسه: «مِسكينةٌ زَينبُ.. لم ترَ مَعي اليومَ الأبيضَ.. منذ تَزوّجنا ونَحنُ في الفاقةِ، نَركضُ والرّغيفُ يركضُ أمامَنا، ولا نَلحقُهُ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٢).

يقول محمّد في نفسه ويتصوّر أنّه: «تَنظرُ زَينبُ إلى الصّغارِ الجائعينَ الباحثِينَ عَن عَينيها عَن ردّ على سُؤالهم بِطلبِ الطّعامِ، ولا تَتمكنُ مِن تَلبيةِ الطَّلبِ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٢). ويؤكد على أنّ: «السُكر غالٍ وليسَ لَديها ما تَشتَري به...» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٣). يتأكد في نفسه أيضا

www.SID.ir

Archive of SID

أنّها: «تَعملُ وتُفكر بِوَسيلةٍ تُؤمّنُ بها الطَّعامَ للصّغار» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٣)، ويتحدّث محمّد المسعود مع زينب في خياله، وهي تتكلّم عن حال الصّغار: «فأنا أكذبُ عليهِم وأقولُ لهَم: سَيحضُرُ أبوكم قبلَ العيدِ الكبيرِ، وسَيحَضّرُ لَكم مَعه ثيابا جَديدةً وحلَوى» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٤).

ويتذكر البطل، وهو في المعركة، كيف أنّه ترك الأهل مغادرا البلاد إلى بلد عربي آخر لتأمين لقمة العيش وتسديد الدّيون التي تحمّلها من ناحية الزّواج، قبل اشتراكه في الحرب: «بَعْدَ زواجِنا مُبَاشَرَةً سَافَرَتُ إلى الكويتِ لِأَعْمَلَ هناكَ طَمَعا بِسَدَادِ الدُّيونِ الَّتِي أَلْحَقَهَا فِي الزَّوَاجِ، هكذا الْعَادَاتُ عِنْدَنَا على الرَّجُلِ الْعَرَبِ أَنْ يَدْفَعَ وَيَدْفَعُ وكأَنَّه لَنْ يعِيشَ بَعْدَ الزَّوَاجِ لَحْظَةً» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٥).

سبق أن عرفنا على لسان البطل أنّ المدرسة تحتاج إلى المصاريف والأوراق والملابس لكي يسجّل زيدٌ في المدرسة. هذا هو يحتلّ من الهواجس المركز الثّاني بعد الخبز، والطّعام في قاعدة الهرم. الأولوية في عين البطل أن يكون إبنه معلّما أو موظّفا. والحلم اللّذيذ الذي يتوقعّه في المستقبل، يشبه بالمستحيل. إذن عاد ليؤكد مرّةً أخرى على هذا الهاجس، وهو المدرسة، والمصاريف، والملابس، والطّلبات: «سيَتَعَلَّمُ، سَيكونُ مُعَلِّما اَوْ مُوَظَّفا، اَو ربّما.. رُبَّمَا شَيئا مَا أكبرُ من ذلكَ... وَلكن.. وَتَجمُدُ "ولكن" اسْتِطَالَةُ الحُلْمِ وَتَنْتَفِخُ أمَام تأمّلاتي وَأحلامي اللَّذيذَةِ وَربّما المَشروعَة هوّةٌ مخوفةٌ... "ولكن" نَعَمْ وَلكن الْمَدْرَسَةُ تَحْتَاجُ إلى الْمَصَارِيفِ وَهُوَ يحْتَاجُ إلى مَلَابِسَ وَطَلَبَاتٍ...» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١١). وترداد كلمتي "ربّما، ولكن" خير دليل على استحالة الأمل المنشود. لذلك تتعارض حاجة المهنة في المستقبل، وهي التحاق الابن بمهنة التّعليم والتّوظيف مع الحاجة الماسّة الأوّلية، وهي: المدرسة، والملابس، والطّلبات، والمصاريف. وينعدم تحقيق حاجة التّعليم لانعدام تحقيق حاجة الدّراسة.

ويشتدّ اليأس لدى البطل عندما لايجد خلاصا، وهو اختيار العمل والمهنة التي تكفي الحاجات: «هذا البَلَدُ... لايوجَدُ فيها عَمَلٌ يعودُ علينا بما يسُدُّ الحاجَة...» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٧). وجود العمل يساوي تفريغ الحاجات؛ إلاّ أنّ البلد عاجز عن تحقيق جزء قليل من تلك الاحتياجات الملحّة.

ويزداد اليأس في باطن البطل إذ يجد وجوده مقيداً. ويتصوّر في مشفى الأسر أنّ إبنه زيد يذكره: «لقد تركتَنا يا أبي دُونَ أن تُهيئنا بشَكلٍ مُلائمٍ للحَياةِ، لم نَشبع، ولم نَكبُرْ ولم نَتعلّمْ ولم تَتركْ لَنا شَيئا» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٥٩). كأنّ الحاجة المركزية، وهي الخبز، والمعاش، والتّعليم باتت لم تتهيأ للعائلة بعدُ. ثم يتابع القول على لسان زيد: «ماذا فَعلْنا بكَ

www.SID.ir

Archive of SID

حتّى تُكافئنا هذهِ المكافأةَ يا أبي؟... أليَسَ لَنا حَقّ عليكَ كما للأولاد حُقوقٌ على آبائهِم؟! كلّ الآباءِ في القَرية يعودونَ إلى بُيوتهم وهُم يحملونَ لأبنائهم شَيئا، كلّ الآباء يقدّمونَ لأبنائهِم ما يحتاجوَن إليه إلاّ نَحنُ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٥٩). والشّكوى نفسها تجري على لسان محمّد في الأسر، وهو يتذكر أباه في خيالها، ويخاطبه في معركة كلامية، حسب تعبيره: «لَيسَ مَعي قِرشٌ يا أبي لآكلَ به، فكيفَ يمكنُ أن أخبئَ القرشَ؟! أنتَ لم تَترك لي شَيئا، وفي صِغَري لم تَكفني شَرَّ الحاجةِ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٦٢). ويتابع الاستذكار: «فإنّكَ لم تَترك لي ما أدّخرُه ليومي الأسودِ، ولا ما أسُدُّ به رَمَقَ أطفالي...» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٦٣). إنّه ورث الفقر من أبيه، وهو قانون ظالم للحياة، والحاجة لاتزول جيلاً بعد جيل. هذا القانون المحتّم يترسّخ في كيان البطل ويستمرّ في الأجيال الآتية، دون مناصّ.

عاش محمّد المسعود حياته فقيرا، يركض وراء حاجاته فلايبلغها إلاّ بشقِّ النَّفْس. وهو، في ذلك، صورة عن أبيه الفقير الذي عرف ألوانا من الاستغلال طوال حياته. إنّه فقير معدم ابن فقير معدم، سعى للحصول على وظيفة في وطنه تدفع عنه غائلة الجوع فلم يُوفَّق. وعلى الرّغم من أنّه لم ينل أيّا من حقوقه في الوطن الذي يحبّه، فقد طولب بأداء واجبه الوطنيّ، وسيق إلى الخدمة العسكريّة (روحي فيصل، ٢٠٠٣: ١٦٩).

يتابع البطل حديثه مع الوالد ويقول: «وها نَحنُ اليوم نَمضَغُ العَلقَمَ ونَسألُ اللهَ النّجاةَ لأبنائنا ممّا نَحنُ فيه. الحَياةُ في أيامِنا قاسيةٌ ولَيسَتْ كما كانَتْ في أيامِكم... أيامُنا لَيستْ كأيامِكم، أيامُنا أقسى بِشَكلٍ ما وعلى نَحوِما» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٦٣). يصرّ البطل على مشاكل الأيام ومرارتها. وتزداد وخامتها إلى أن يأسف. في الواقع يشكو عن عصرنة المشاكل مثل السغب والمجاعة في بلد فقير.

هذه الهواجس السّائدة على مخيلة الزّوج، وهو في ميدان القتال، تجعله ينتاب من أجل المصير الذي يتحتّم على الأسرة البريئة؛ وهي تبحث عن الخبز، والرّغيف، والطّعام، واللّقمة، والسّكر، والحلوى، والملابس، والثّياب، واحتياجات المدرسة. وكلّ ذلك يدلّ على الفاقة، والجوع، وهما شيئان أساسيان لا يزيلهما إلاّ المال أو القرش المأمّل.

وبما مضى من أمثلة، يتمّ إشباع هذه الحاجة بوسيطة المال، وهي ترتبط بالحاجات الجسدية وبغيرها، وتلعب دورا أساسيا في إشباع سائر الحاجات (سلطاني وآخرون، ١٣٩٥: ١٥٠).

تستحوذ على الإنسان حاجات الأمن، عندما ترتفع الحاجات الجسدية نسبيا، ولكن إذا تعرّضت الحاجة الجسدية لخطرما، نحو: الحرب، والطّوارئ، وممارسة العنف في البيت،

www.SID.ir

Archive of SID

و... فيعود الإنسان ويجرّب مرّةً أخرى مثل هذه الحاجات. وحين يتعرّض الأمن الاقتصاديّ لخطرما، نحو: الأزمة الاقتصاديّة، وانعدام فرص العمل، تكشف الحاجات الفزيولوجية القناع عن الوجه وتظهر جَليةً بصورة ترجيح الأمن في العمل، والادّخار، والحصول على أوراق التّأمين (Novitović, 2017: 12). والأمر شاهدناه في الأمثلة السابقة.

الحاجة إلى الأمن والطَمأنينة

تتمثّل في تجنّب الأخطار الخارجية، أو أيّ شيء يؤذي الفرد (سليمان عواشرية، ٢٠١٥: ٧)، وفي الحماية من القوى الطبيعية مثل الرّياح، والبرد، والأمطار، وضوء الشّمس (الطّوخي، ٢٠١٧: ٦). والتي تزعزع الأمان، والاستقرار، والدّعم، والتّحرر من الخوف والقلق والتّشويش، والتي تؤدّي إلى الافتقار إلى التّنظيم والقانون، تحديد الحدود، اللجوء إلى الحامي، و... (Maslow, 1970: 39).

من هنا، الأمن، والرّاحة، والاطمئنان، والسّلامة، هي ألفاظ تتردّد على لسان البطل تليها ألفاظ أخرى وهي الموت، والدّفاع. يموت البطل ليدافع عن الأرض، والأسرة، والعرض، والعقيدة،كما يلي من أمثلة.

ترك البطل هاجس الجوع، وانتقل إلى شيء هامٍ، وهو الدّفاع عن الوطن ودفاع الوطن عنه. ويقول: «أَحْسَسْتُ أَنَّ الْوَطَنَ بكلِّ مَا فيه... أَرْضُهُ وَصَخْرُه وَأُناسُه... كلُّهُم يَقِفُونَ مَعِي وَيَحْرِصُونَ عَلى سَلَامَتِي ويَدفَعونَني إِلَى مُوَاصلَةِ الرَّمْي... وَلَمْ أَعُد أَرى زَينَبَ تَبكي مِنَ الْجُوعِ ولا مِن الوُعودِ الكاذِبةِ التي تَقطَعُها للأولادِ... وَلَمْ أَعُد أَشْعُرُ بِضَعْفٍ أَوْ حَاجَةٍ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ أَوْ بِأَيِّ كائِنٍ آخَرَ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٢١). هنا يحدث تقابل بين الأمن والجوع. ويتمّ ترك الحاجات المبدئية واستبدالها بأخرى سامية وهي الدّفاع عن الوطن وإقرار الأمن فيه.

يعالج عرسان قضية من القضايا القومية وهي الدفاع عن الوطن وكرامته ودور الشعب في الحفاظ عليه. فالدفاع يتمّ بأبنائه ولابدّ لهم من التّكاتف ورصّ الصفوف، فلا يستطيع أفراد أن يقفوا دون الآخرين سدّا في وجه الغزاة. إنّه وطن الجميع، وعليهم أن يحموه ويتكاتفوا في سبيل درء الخطر عنه (نيازي، ١٣٩١: ٥٨).

رغم إخلاص البطل للوطن والمواطنين، يشاهد أنّ ذوي التّجارة، ومنهم «أحمد الحسن»، يستغلّون فرصة الأمن من أجل تزايد الأرباح ولايبالون بمن يفتدي أو يجوع، ويذكر البطل خطر الوظيفة والعهد لمن لايطمئنّ إلاّ براحة نفسه دون غيره من الجيران المحتاجين: «أَنَا يا

www.SID.ir

Archive of SID

أَحْمَدَ الْحَسَنِ أَمُوتُ كلَّ سَاعَةٍ مِنْ أجلكَ وَمِنْ أَجْلِ غَيركَ لِكي تَطْمَئِنَّ على تِجارتِكَ وَأرباحِكَ وَبَيتِكَ، كيفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنَامَ بِرَاحَةٍ وَاطْمِئْنَانٍ وَأَوْلَادِي بجوارك يَتَضوَّرونَ مِنْ الْجُوعِ؟» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٢٣). هنا يتراوح التّعارض بين الأمن والجوع مرّة أخرى. من النّاس من اطمئنّ لمعاشه، وقلقه الوحيد هو الرّبح؛ أمّا سائر النّاس فيمور في أنفسهم خوف الجوع كالبطل وعائلته الجائعين.

ويطرح عرسان قضية الكرامة من منظور طبقيّ، فالفقراء يهتمّون بالوطن في السرّاء والضرّاء ويدفعون ثمن هذا الاهتمام، وهم لايشبعون الخبز، ولا يملكون في الوطن شيئا، ولكنّ الوطنية تتفجّر من حناياهم (نيازي، ١٣٩١: ٥٩).

يقول محمّد المسعود بعد أن خمدت النيران بين الخندقين ويتصوّر: «وتَكبرُ الرّؤى في عَينيّ، وأطوفُ بخيالي على القُرى والمدنِ... إنّ كلَّ شَيءٍ هادئٌ تَماما، وإنّني صانعُ هذهِ الطّمأنينةِ وهذا الهُدوءِ فَوقَ القرى والمدنِ، لولا سَهري لما حلُمت القُرى والمدنُ، ولما استَحمّتْ في ضَوءِ القَمرِ. ولولا وُجودي في الَخندقِ الباردِ الرّطبِ، لما غَلفَ الدّفءُ مَهادَ الأطفالِ، ولما سَكنَ الزّوجُ إلى زَوجهِ يلاطفُها، ولا حَبيبٌ إلى حَبيبتهِ يناغيها، لو لم أكنْ ألفّ مِدفَعي الرّشاشَ بَينَ زِراعي لما لَفّ النُورُ بين زِراعيهِ مَن يسلّمونَ له أنفسَهُم الآنَ باطمئنانٍ، ولما سَرتْ في رُبوعِ وَطني أشرِعةُ الأحلامِ والآمالِ العِراضِ.. ولما انسابَتِ البَسَماتُ والكلَماتُ الحُلوةُ على الشّفاهِ.. أنا صانعُ السّعادةِ.. ويا لسعادة مَن يستَطيعُ أن يصنعَ شَيئا من ذلكَ لِلإنسانِ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٢٦-٢٧). وهو يذكر أهل المدن، والقرى، والأزواج، والأحباب، والنّاس كلّهم أنّه صنع الأمن، ويفخر لنفسه. والنّكتة أنّ الأمن السّائد على أجواء البلاد يدوم بتضحية الرّوح في ميادين القتال.

يبدو وكأنّ البطل حصل على ما يشبه بحاجة تحقيق الذّات المسبق بإقرار الأمن، وهو حاجة البطل والمواطنين معا، وقيل في ذلك أنّ تحقيق الذّات هو عملية مستمرّة يصبح الإنسان معها في حالة ممتازة، ويصل إلى قمّة السّعادة (الطّوخي، ٢٠١٧: ٧)، إذ نرى البطل، وهو يصرخ بالسّعادة لما قام به من إقرار الأمن، في المثال الماضي. وهنا تمتزج حاجتان: الأمن وتحقيق الذّات.

يتحسّر البطل على حال الأولاد والزّوجة لأنّهم لم يحظوا بطعم الرّاحة والأمان في الحياة معه ويقول: «مَساكينُ هم أولادي ومِسكينةٌ هي زوجَتي. إنّهُم جَميعا لم ينعَموا بحياةٍ يعمُرُها

www.SID.ir

Archive of SID

طَعمُ الرّاحةِ في يومٍ مِن أيام سَلامتي ووُجودي قَويا بَينهم، فكيفَ يعيشونَ بَعدَ اليومِ؟!» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٥٩) . هنا يتمّ الإلحاح على الرّاحة، وهي أمل غير محقّق لدى البطل فكيف تتمتّع الأسرة بطعم الرّاحة، ولايدعمها داعمٌ، في حال أسر البطل، وبعده عن الأسرة؟! والغرض من طعم الرّاحة هو توفير المعاش والحاجات. إذن يختلف الأمر بين الأمن والهدوء الناجم عن المعاش وبين الأمن والهدوء النّاتج عن استقرار البلاد؛ بحيث يخضع الهدوء في المعاش للهدوء في البلاد.

يضطر الإنسان إلى الأمن ويدافع عن نفسه عندما يشهد الحرب، وعدوى المرض، والطوارئ الطبيعية، والإجرام، وتشتّت النّظام الاجتماعيّ، وتفسّخ مراجع القدرة، والأوضاع الأمنية المتوترة (Maslow, 1970: 42-43) ومن هذا المنطلق، نلاحظ أنّ البطل وأمثاله في القصّة يبذلون حياتهم قربانا للوطن والمواطنين والأسرة. لذلك يقول محمّد المسعود: «نَحْنُ نُدافعُ عَنْ أنْفُسِنَا وَأرْضِنَا وَحَضارتِنا، عَنْ أوْلَادِنَا وَعِرْضِنَا وَعَقِيدَتِنَا ضِدَّ عَدُوٍّ مُغْتَصِبٍ شَرِسٍ، فَرَضَ الْحَرْبَ علينَا» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٠٧-١٠٨). إنّ النفس، والأرض، والحضارة، والأولاد، والعرض، والعقيدة، أشياء تعتبر كنوزاً لدى الإنسان، ويجب له أن يحميها، لترتاح هذه الكنوز في مأمن أمين، وليستقرّ قلب صاحبها في القرار. ولا تستطبّ البلاد في الحرب إلاّ إذا واجهها المواطن الشريف بإرادة قوية وقبضة سميكة.

الحاجة إلى الحبّ والانتماء

ليس الحبّ ضروريا ضرورة إشباع حاجتي الجوع والعطش الحيويتين. والحبّ لايولد مع الإنسان بل هو يشعر بالحاجة إلى الحبّ لاحقا. والحبّ يظهر متأخّرا نسبيا في تاريخ النّوع البشريّ. فالقدرة على تقييم البشر، والحاجة إلى هذا التقييم لاتتواجد إلاّ بعد بلوغ طور معين من تطوّر الحضارة وتطوّر الأفراد. لاتصبح ولادة الحبّ ممكنة إلاّ حين تُضفى على شخص ما قيمةً تفوق القيمة المضفاة على شخص آخر أو على كثير من الأشخاص (رايك، ٢٠٠٠: ١١-١٥). وبعبارة أخرى، هذه الحاجة يمكن أن تظهر عن طريق إقامة العلاقة الحميمة الودّية مع صديق ما، وحبيب، وزوج، أو عن طريق إقامة التّرابط الاجتماعيّ في مجموعة ما (Schultz, 2005: 314). وفي الواقع تتحصّل حاجة الحبّ بأن يكون الإنسان محبّا ومحبوبا في آنّ واحد (Maslow, 1970: 45) وقيل إنّها حاجات متبادلة وتقوم على مبدأ الأخذ والعطاء، وعدم إشباعها يؤدّي بالفرد للوحدة والعزلة (القطناني، ٢٠١١: ١٤). وهكذا تتمثّل في

www.SID.ir

Archive of SID

الحصول على الحبّ، والعطف، والعناية، والاهتمام، والسّند الانفعالي، ذلك بواسطة شخص آخر أو أشخاص آخرين (سليمان عواشرية، ٢٠١٥: ٧).

هذه الحاجة تتجسّد في الشّوق إلى البيت، والتّراب، والقرية، والجبل (صخرة الجولان)، والوطن، وزينب، والأولاد. والبطل يحنّ إلى الوطن حينا وإلى الأسرة حينا آخر. إذن هناك بعدان للحبّ والانتماء: بعد وطنيّ وبعد أسريّ.

يتصدّر البعد الوطنيّ ويتفوّق على البعد الأسريّ، منذ بداية القصّة، حيث يقول البطل: «وَقَفْتُ اليوم عَلَى سَفْحِ الْجَبَلِ الَّذِي ارْتَبَطتُ بِهِ ارْتِبَاطَ جَذْرِ الشِّيحِ بِالْأَرْضِ ونَظَرْتُ مِنْ فَوْقِهِ بإتجاهِ الشَّرْقِ كما هِي عادَتي مُنْذُ أَصْبَحَ الْجَبَلُ الدُّنْيا بِالنِّسْبَةِ إليّ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٧). ولكن مالبث أن تحوّل إلى البعد الأسريّ وتذكرّ البيت. وهذا قلق لايتركه أن يطمئنّ باله أبدا. ويقول: «وعندما أتذكرُ البَيتَ الذي يقدّمُ الاطمئنانَ، والرّاحةَ، والأنسَ، وأحاولُ أن أفصلَ بَينَه وبَين عَواطِفي التي تَربطنُي به، أجدُه مُثيرا للوَحشةِ والقَلقِ. وهذا وَحدَه كانَ كفيلاً بأن يثيرَ هَواجِسي ولا يجعلنُي أطمئنُّ إلى شَيءٍ مادُمتُ بَعيدا عن بَيتي» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٧-٨). والبيت يمثّل رمزا للرّاحة والأمان إلى جانب الأنس والعاطفة. وهو مأمن، والإنسان فيه مأمون. امتلاك البيت يشبع حاجتين معا، الأولى: هي الاطمئنان، والثانية هي الأنس. والبيت قرين العاطفة وفقدانه يؤديّ إلى القلق. وهو يؤمّن المستويين الثاني والثالث من هرم الحاجات، كما عرفنا. وقال بعض العلماء النّفسيين: إنّ القلق، والفزع، والاستياء أعراض ثابتة قبل بزوغ الحبّ (رايك، ٢٠٠٠: ١٩).

يرسم بطل القصّة في خياله لحظات سعيدة في مناغمة الأطفال ومداعبتهم ويقول: «وكنتُ أعيشُ لَحظاتٍ مَع صُورِهِم تُراودُني، وهُم نِيامٌ.. زيدٌ بِعُيونهِ العَسليةِ ووَجهِهِ النّاعمِ وشَعرِهِ الأسْودِ الأملَسِ..» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١١). في هذا الشاهد تصدر صورة عن المغازلة. والمغازلة أو التودّد هي في الأصل عرض لا واعٍ للرّغبة في إبراز الحبّ (رايك، ٢٠٠٠: ١٤). والوقوع في الحبّ يعني ملاقاة الصورة المتخيلة (رايك، ٢٠٠٠: ٢٢).

والبطل يؤكد على أنّه يرافقهم في كلّ لحظة، ويقول محمّد لزينب في حديث خيالي: «ولكنْ قَلبي مَعكم.. إنّكم لاتُفارقونَني لَحظةً واحدةً، التّرابُ هو التّرابُ والحِجارةُ هِيَ الحِجارةُ، أنا مَعكم» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٤). هنا يتشابكُ نوعان من الانتماء وهو الانتماء إلى الأسرة مع الانتماءِ إلى التّراب. ويريد البطل بهذا التّعبير أن يصل بين التّرابين وأن يوحي للعائلة أنّه ليس بعيدا عنهم، وكلّهم يعيشون على تراب واحد، رغم الامتداد على سطح الأرض.

www.SID.ir

Archive of SID

لا تمرّ لحظات الشّوق حتّى تتحوّل إلى لحظات الحسرة ويتحدّث في نفسه وتتكرّر مسكنة حال زينب: «مِسكينةٌ زَينبُ.. لم ترَ مَعي اليوم الأبيضَ. بَعْدَ زِواجِنا مُبَاشَرَةً سَافَرَتُ إلى الكويتِ لِأَعْمَلَ هناكَ طَمَعا بِسَدَادِ الدُّيونِ الَّتِي أَلْحَقَهَا فِي الزَّوَاجِ .. فَقَد دَفَعتُ جَنى العُمرِ لأتزوّجَ.. هكذا الْعَادَاتُ عِنْدَنَا على الرَّجُلِ الْعَرَبِ أن يَدْفَعَ وَيَدْفَعُ وكأنَّه لَنْ يَعِيشَ بَعْدَ الزَّوَاجِ لَحْظَةً» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٥) . هنا يبدي البطل عن تحسّره على حال زوجته وهي تعيش حياةً بائسةً. وهذا هو صدق الحنان بين الزّوجين. والابتعاد يفصل بين الحبيبين، وتبقى حاجة الحبّ في أنفسهما، بلاإشباع.

يشتاق أبو الأسرة ليعود إلى البيت ويزور الأهل والأولاد، بلوعة بالغة ويهزّه هذا الشّعور العارم ويجزم القوى بما يجمع من النقود ولوازم السّفر. وهو الحال نفسه في ربّة البيت زينب كما يقول البطل: «سَافَرَتُ إلى الكويتِ لِأَعْمَلَ هناكَ، أَوْلَادِي الثَّلَاثَةُ لم أَحْضُرْ وِلَادَتَهُمْ كانَتْ تَأْتِينِي الرِّسَالَةُ وَفِيهَا خَبَرُ وِلَادَةِ أَحَدِهِمْ فَيَهُزُّنِي الشَّوْقُ إلى زَيْنَبَ وَإلى الْمَوْلُودِ الْجَدِيدِ فَأَجْمَعُ مَا مَعِي مِنَ النُّقُودِ وَأَشْتَرِي تَذكرةَ سَفَرٍ بِالطَّائِرةِ وَأَعُودُ إلى الْقَرْيَةِ، ومِلءُ قَلبي فَرحٌ وحَنينٌ وأجدُ زَينبَ بمثل ما أنا فيهِ مِن لَوعةٍ وشَوقٍ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٥). الرّحلة للعمل وجمع النّقود يجعل البطل يتشوّق إلى الالتحاق بأفراد الأسرة، منها الزّوجة والطّفل الحديث المولود. الفرح والحنين يغمران الزّوج والزّوجة على السّواء بالطّفل مع الوصال الذي يتمّ حال زيارة الأب لأسرته بعد العودة. وهنا يسرع البطل في تلبية الحاجة، ويكاد الوصال يقترب من التّحقّق.

لا يطول الإحساس نحو العائلة حتّى يتذكر البطل أنّ الوطن لا يبالي بمن يكنّ له حبّا. ولايسمع الشّكوى، ولايشعر بالألم، ولايوفّر لوازم السّعادة، ويضمر غدراً بالسّكين، إلاّ أنّه رغم كلّ هذه الصّفات التي يتحلّى بها، هو عزيز لايمكن مغادرته؛ بحيث يقول البطل: «هذا البَلَدُ الذي دُفِنَ فيها خِلاصُنا لايسمَعُ ولايحِسُّ، لايوُجدُ هنا في الأرضِ التي نُحبّها، ويسكنُ عَبقُها في عُمقِ خَلايا دَمنا، لايوجَدُ فيها عَمَلٌ يعودُ علينا بما يسُدُّ الحاجَة، يسترُ الحالَ، ويحفظنا مِن السّؤال، فيها غَشٌ وكذبٌ واستغلالٌ تحتَ عَناوينَ براقَةٍ، ولكن سَكاكينَه في العِظامِ .. هذا البَلَدُ العَزيزُ لابدَّ من فَراقِه.. وفراقُه صَعبٌ كطُلُوعِ الرّوحِ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٧). إذن هنا، يمتزج الحقد والحبّ، وتبقى حاجة الانتماء بين شعورين متناقضين.

تترك الرّواية محمّد المسعود يتحدّث داخل البعد الوطنيّ بعد سوقه إلى الخدمة الاحتياطية، ووجوده في الجبهة لقتال العدوّ عن قهره الإنسانيّ والاجتماعيّ، وكأنّها تتساءل بشكل غير مباشر عن موقف هذا المقهور من وطنه. وإنّ القارئ يتوقّع أن تكون الرّواية راغبة

www.SID.ir

Archive of SID

في طرح هذا السّؤال بعد أن وضَّحتُ بعدي محمّد المسعود الإنسانيّ والاجتماعيّ. ولكنّه يُفاجأ بأنّ الرّواية تؤكّد حبَّه وطنه. ومن ثَمَّ يلاحظ القارئ أنّ حبَّ الوطن عند محمّد المسعود يرتفع فوق القهر الإنسانيّ والاجتماعيّ دون أن يلغيه. وفي الظّن أنّ رؤيا علي عقلة عرسان تكمن في هذه النّقطة، في أنّ مصلحة الوطن فوق مصلحة الأفراد، دون أن يعني ذلك أيّ إلغاء لحقوق الفرد الإنسانية والاجتماعية. إنّ هناك دليلاً على فنّيّة الرّواية، هو ذلك الخيط من الأسى الذي يشعر به القارئ خلف هذه القيمة العامّة. ومفاد هذا الأسى أنّ الوطن لا يهتمُّ بأفراده كما يهتمُّ أفراده به. فهو يُهمل أُسَرَهم ويتركها عرضة للحاجة والاستغلال والخوف، وفي الوقت نفسه يضعهم على الحدود ويطلب منهم أن يدفعوا الأعداء عنه (روحي فيصل، ۲۰۰۳: ۱٦۹-۱۷۱).

ويعود البعد الأسري للحبّ عارما وما عتمّ أن يغمر البطل شعور اللّوعة، والشّوق، عندما يفارق الأسرة إلى خارج البلاد من أجل تأمين المعاش وفي هذه الحالة يفوح قول محمّد عن شعوره المرّ نحو الأعزّاء: «وأعودُ إلى الكويت، أحملُ على كتفي همّي وهمّهم وفي حَلقي مَرارةُ الفِراقِ وأوطنُ نَفسي على احتمالِ تَباريحِ الحَنينِ، والشَّوقِ، والغُربةِ..» (عقلة عرسان، ۱۹۸۷: ۱۷).

في مجال الحبّ والانتماء، يتحوّل البعد الأسريّ لينتقل إلى البعد الوطنيّ مرّةً أخرى، بحيث يقول محمّد المسعود: «و استَعْدَتُ عَلاقَتي مَعَ تُراب قَرْيَتِنَا يوْمَ كنتُ أعْمَلُ عِنْدَ عَمِّي فِي زِرَاعَةِ الْأرْضِ خِلَالَ الشِّتَاءِ وَالرَّبِيعِ، وَتَغُوصُ قَدَمَاي فِي الطِّينِ، وَأُحسُّ حِينَئِذٍ بِأنَّ لِلتُّرَابِ رَغْبَةً لَاتُوصَفُ فِي التَّمَسُّكِ بِي، وَإبقائي مُسَمَّرا فِي مكانٍ وَاحِدٍ لا أُبارِحُه وَلاَ أتَجَاوَزُهُ» (عقلة عرسان، ۱۹۸۷: ۲٥). وهنا تتبادل المودّة بين الموطن (القرية) وقاطنه في تمسّك واستبقاء. ويعيد محمّد مفهوم العلاقة بينه وبين تراب القرية: «أنَّ الْعَلَاقَةَ الَّتِي تَرْبِطُنِي بِتُرَابِ الْقَرْيِةِ، لَيسَتْ وَاهِيةً وَلاَبَسِيطَةً، وَقَدْ قَدَّمْتُ لَهَا أكثَرَ مِمَّا قَدَّمَ أحْمَدُ الْحَسَنُ وَسِوَاهُ بِكثيرٍ... بِكثيرٍ جِدّا» (عقلة عرسان، ۱۹۸۷: ۲٥). حبّ الوطن بما فيه قرية البطل هو مبدأ الحبّ والانتماء. لذلك يذكر المتناسين افتداءه لتراب الوطن الذي يتلاحم معه، وهو مهبّ الحبّ، وموطئ الأقدام، مدفن الموتى، ومصدر الرّزق، كما يلي: «فَنَحْنُ أنَا وَأمْثَالِي نَرْتَبِطُ بِالتُّرَاب وَيَرْتَبِطُ بِنَا، حَيَاتُنَا مَعَهُ وَحَيَاتُه مِنَّا، بَيْنَنَا تَلَاحُمٌ مَصِيرِيٌّ، هُوَ مَوْطِئُ أقْدَامِنَا وَمَكانُ عَمَلِنا، وَمِنْهُ مَصْدَرُ رزقِنَا، عليهِ نَقِفُ وَفِيهِ نُدْفَنُ وَدُونَهُ تَأكلُنا الْغُرْبَةُ» (عقلة عرسان، ۱۹۸۷: ۲٥). التّراب يتعلّق به ساكنه ويتعلّق التّراب بساكنه. هذا هو سرّ الانتماء الوطنيّ. والغربة تبيد هذه الأواصر وتثير القلق في وجود المغترب الذي تسكن في قلبه حاجة الانتماء. وهو غير مشبع بالحاجة هذه. وقيل: الحبّ يولد عندما يشعر شخصان بانجذاب أحدهما إلى الآخر (رايك، ۲۰۰۰: ۱۸). لذلك تعدّ تعابير الرّوايّ «العلاقة، التمسّك، الإبقاء، الارتباط، التّلاحم» انجذابا.

www.SID.ir

Archive of SID

وتتبادل زينب نفس الحبّ الذي يكنّه محمّد المسعود لها، في تخييل يوجده محمّد: «نَظرتُ إلى الأولاد وهُم نائمونَ، إنّهم كصِغارِ الحَمامِ يتكوّمونَ أمامَها، وشَعرتُ بأنّ قَلبَها يكبرُ ويكبرُ حتّى ليكفيهِم ركنٌ ظَليلٌ صَغيرٌ مِن أركانِه الآمنةِ، أمّا الباقي مِن ذلكَ القَلبِ الكبيرِ فَسيمرحُ ويتربّعُ فيه زَوجُها. إنّ له القَلبَ وأكثرَ مِنَ القَلبِ، له حَياتهُا كلّها. ألم تحبّه الحبّ كلّه. ألم تَتعذّبْ في سَبيلِ الوُصُولِ إليه» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٧٩). والبطل بهذا التّساؤل يتأكد في نفسه أنّ الحبّ يعيش في قلب الحبيبين على الدّوام. وحاجة الحبّ كأنّها غير قابلة للإشباع بهذا الشّكل الذي ينبض القلب من أجلها. وهي حاجة مستمرّة في الوصال والفراق، في كلّ الأحوال. وقيل: الحبّ لن بدوم دون بصيص من الأمل (رايك، ٢٠٠٠: ١٣).

يستعيد الرّاوي البعد الأسريّ للحبّ والانتماء على لسان البطل، وهو يقول: «وبإرادةٍ حَديدية أغلقتُ بابَ بَيتي القابعِ في قَلبي على مَن فيه لن يفْهَمَ أحَدٌ أبَدا حُبِّي لأطفالي وَلِزَينَبَ وَكلُّ قِصتِي وَأوضاعي ليَكنْ ذلكَ شَيئا خَاصًّا وَمُقَدَّسا يَتِمُّ فِي خَلْوَةٍ مَعَ النَّفْسِ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٢٩). في هذا المقطع الأخير، يتذكر محمّد في نفسه لزوم الحبّ، وهو بين الأسرى في السّجن. وانتهى أثناء فكره إلى أنّ حبّه للأسرة أمر مقدّس لايمسّه سوء النّوايا. والصّيانة عن المودّة الأسربّة ضرورية جدّا.

الحاجة إلى التّقدير والاحترام

تندفع حاجة الاحترام فينا بنوعين، بعد أن شعرنا بمحبّة الآخرين وبالانتماء إليهم، بحيث نحترم أنفسنا، ونزن لها وزنها، ونجعل لها حرمة، وإلى جانب احترام النّفس نحتاج ضمنه إلى أن يؤيدنا الآخرون ويقدّروننا، ويرفعوننا بالتوفيقات (Schultz, 2005: 314). وتتمثّل في أن يكون الفرد متمتّعا بالتّقبل والتّقدير كشخص يحظى باحترام الذّات، وأن يكون محترما، وله مكانة، وأن يتجنّب الرّفض أو النّبذ أو عدم الاستحسان (سليمان عواشرية، ٢٠١٥: ٧).

في البداية يجب أن يحترم الإنسان نفسه ثم يولي بالآخرين اهتماما ويحترمهم، كما يتكلّم محمّد في نفسه في أحضان الخندق ويخاطب بائع القرية: «وأخذتُ أشعرُ بأنّ قَلبي يكبرُ ويكبرُ.. وأشعرُ بأنّني قَيمّةٌ.. قَيمّةٌ في نَظرِ نَفسي على الأقلّ قَيمّةٌ أستطيعُ أن ألمسَها بِيدي. وأستَحضرُ صُورةَ أحمدَ الحسنِ ... في خَيالي حتّى أشعرُ بها مجسّمةً، وقَد سَدّتْ مَنافذَ الرّؤيةِ على. وأنظرُ إليه هذهِ المرّةَ بشَيءٍ مِن الكبرياءِ، والعزّةِ، والتّعالي. وأنا أقولُ لَه: لولا وُجودِي هنا ماكنتَ لتَشتري أو تبَيعَ باطمئنانٍ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٢٧). البطل يشعر في

www.SID.ir

Archive of SID

باطنه قيمة لوجوده، ويتقمّص بالكبرياء، والعزّة، والتّعالي في مخاطبة اللاهين بمكانته الاجتماعية وبتعلّقاته الأسرية والزّوجية، منهم أحمد الحسن. وحاجة التّقدير والاحترام تلتهب في وجوده، بلاإخماد.

التجذّر في الأرض التي يحتلّه العدوّ ضروريّ، وذلك يهيئ الأمان والرّاحة، وينتهي الأمر بهذا الغرض إلى أن يشغل الإنسان وزنا، وقيمةً، وفخرا، واحتراما، في عيون النّاس أجمعين؛ بحيث يقول البطل: «يجبُ أن نَغرسَ الجُذورَ في هذهِ الأرضِ لِكي يطمئنّ الأولادُ في البَيتِ، ولتَذهبَ زَينبُ إلى العَملِ بِشَيءٍ مِن الثّقة والرّاحةِ، وليزدادَ وَزنُنا بنظَر النّاسِ، ولِنكونَ مَصدراً للفَخرِ، والسّعادة، والاطمئنانِ. هذا ما قُلتُه لنَفسي، وإنّ هذا وَحدَهُ يكفي لِكي نُضحّي بِراحتِنا مِن أجلهِ. سَوفَ يقولونَ: إنّنا حَقّقنا هذا.. ويطلِقونَ علينا صِفاتِ الأجدادِ الأوائلِ» (عقلة عرسان،١٩٨٧: ٣١). إنّ نزوع الإنسان إلى مفاهيم حيازة الشّرف، والمقام، والاشتهار، والافتخار، والتّفوّق، والشعبية، والاهتمام، والحرمة، والتّحسين يعتبر من المظاهر الفرعية لمفهوم الاحترام الذي يكنّه الآخرون لنا (Maslow, 1970: 45). وتتجلّى مظاهر النزوع في الشاهد السابق حيث التقت حاجتان: الاطمئنان والرّاحة من جانب، والوزن، والفخر، والسّعادة من جانب آخر.

بعد احترام الشخص لنفسه يحدث أن يحترم الإنسانَ آخرون ويفتخرون به، كما كتب نزار زميل محمّد من الجبهة إلى أسرة محمّد، وهو يخبر المختار والتّابعين له من أهل القرية: «أكتبُ إليكم مِن الجَبهةِ، مِن خَطّ النّارِ مَع العَدوّ. أرجُو أن تُخبروا عائلةَ محمّدٍ المسعودِ مِن قَريتكم، أنّه جُرحَ أمامي عِندما اشتَبكنا مَع العَدوّ. ولا أعرفُ أهو حيّ أم ميتٌ الآن، لقَد كانَ بَطلاً شُجاعا، ونَفتخرُ به، ويفخرُ به الوَطنُ، ولَكم أن تَفتخرُوا به أنتُم جميَعا» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٤٧). إذا افتخر الإنسان بوصفه فردا مفيدا للمجتمع فلامحالة أن يفتخر به أهل مجتمعه. وهذا قانون الحياة الاجتماعية العالمية. والاحترام والفخر كلّ منهما حاجة بطرفين، يتعلّق بهما الكائن الحيّ بين فينة وفينة، والفخر يقع في ذروة الاحترام.

يتخيل محمّد المسعود، وهو أسير في حضرة الاستجواب، كيف يستقبله أهل الوطن في حفاوة هائلة: «خِلتُ الأهلَ في الوَطنِ الكبيرِ يفتَحونَ صُدورَهم لي ولمن يخصّني. في الحُلمِ يصبح للنّاس عُيونٌ، ووُجوهٌ، وصُورٌ، وحُضورٌ، غيرُ ذلك الذي في الواقعِ، وهكذا كنتُ أرى» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٧٣)، كأنّ البطل يتوقّع احتراما وتبجيلاً أكثر ممّا في الواقع. وهذا التوقّع لازم لمن يبذل حياته فداءً في سبيل الوطن. ويبدو أنّ الحاجة تُلحّ عليه في أن تشبع.

www.SID.ir

Archive of SID

وكان البطل يتصوّر، وهو في مشفى الأسر، كيف يعاملونه وأمثالَه في مشافي الوطن ويقول: «وخَطرَ لي وجهُ الانسانِ الباسمِ في الوَطنِ والقُلوبُ الرّقيقةُ والعَطفُ، تخيلتُ أمثالي مِن الأسرى كيفَ يعامَلون هُناكَ، وأمثالي مِن الجَرحى كيفَ يكرَمونَ» (عقلة عرسان، ۱۹۸۷: ۹۵). إذا عاش الإنسان في خياله، وهو يحظى بالاحترام، والإكرام فهو يدلّ على أنّ المحتاج يفتقر إلى مثل هذه الحاجة المبرمة، في وقت قريب.

قرّر البطل الأسير في نفسه أن لا يخون الوطن عند الاستجواب والتّحقيق، وهو يقول: «أبدا لن أجبُنَ ولن أضعُفَ، ولَن أبحثَ عَن راحةٍ ما أدفعُ ثمنَها عَدمَ احترامي لنِفسي» (عقلة عرسان، ۱۹۸۷: ۱۳۹). يدرك البطل أنّ الإنسان يتمتّع باحترام النّفس حينما يطرد الجبن، والضّعف، وأسباب الرّاحة من أطرافه. ويجب عليه أن يدفع ثمن احترامه لنفسه. وهو لن يربح به دون التزامه بالاقتدار، أمام التّحدّيات. والصّمود هو علاج الحاجة. وقيل إنّ الميل إلى حيازة القدرة، والتّوفيق، والسّيادة، واالمؤهّلات، والثّقة، والاستقلال، والحرّية من مظاهر الاحترام الذي يخصّه الإنسان لنفسه (Maslow, 1970: 45).

يقول محمّد في نفسه، وهو في حضرة المحقّق: «خاطَبتُ... الأجدادَ القُدامى والأجيالَ، إبني زيداً، وزوجتي وأقاربي، وأبناءَ بَلدي، قُلتُ لهم: إنّني عُذّبتُ وذُقتُ المذلّةَ والقَهرَ، ولكنّني لم أخُن ولم أكنْ جَبانا، ولاشَوّهتُ سُمعتَكم وشَرفي، لاتَتركوني أذهبُ هكذا رَخيصا، فليكنْ لي ثمنٌ، وليكنْ للذين ذَهبوا قَبلي ومَعي ثمَنٌ» (عقلة عرسان، ۱۹۸۷: ۱٦۸). كأنّه يخاف من قلّة الشّرف في عيني مواطنيه ويلتمس منهم احتراما، ويشعرهم أنّه ذاق المذلّة والقهر من أجلهم. وهو أدّى وظيفته، واحترم سمعتهم وسمعة نفسه. لذلك ينتظر التّقدير الثمين لنفسه ولغيره من الأبطال. وهذه الحاجة الغريزية تتحكم عليه مع التّمادي، وهي لم تشبع.

الحاجة إلى تحقيق الذّات

سميت هذه الحاجة بالإنسانية الكاملة (القطناني، ۲۰۱۱: ۱۵). وتدعى دافع الوجود أو دافع النّمو، أيضا (القطناني، ۲۰۱۱: ۳۲). هناك سمات يتميز بها الأصحاب المحققّة ذواتهم، وهي تشمل: الإدراك الواضح من الواقع، قبول النّفس والآخرين والطّبيعة، تلقائية النفس وعفويتها وبساطة الباطن وواقعية الشّخصية، التّحلّي بالمسألة والإيديولوجيا/الموضوعية، الانكماش على الذّات والانفصال عن الآخرين، الاستقلال في الرّأي وحرية الإرادة والعمل، التّقدير والتّحسين، ممارسة التّجارب الشّطحية/خبرات الذّروة، تقمّص الوجدان، عقد العلاقات الاجتماعية

www.SID.ir

Archive of SID

العميقة، التّخلّق بالتّسامح والديمقراطية، التّمييز بين الوسيلة والهدف وبين الحسن والقبح، روح الدّعابة والمزاح الفلسفي، الإبداع والإنجاز، عدم الخضوع الكامل للضّغط الاجتماعيّ والثّقافي (Maslow, 1970: 153-174)، بدعة الفهم والانطباع، الالتزام بالتطلّعات، التّركيز على المشاكل العنيدة المضنية، التّحمّل والتّصبّر (Schultz, 2005: 316-321)، التمتّع بالمستويات الأخلاقية العالية، الاهتمام بتقدّم البشرية ورفاهيتها (الطّوخي، ٢٠١٧: ٧).

وهذه الحاجة ترتبط بالتّحصيل، والإنجاز، والتّعبير عن الذّات، وأن يكون الفرد مبدعا، وأن يقوم بأفعال وتصرّفات تكون مفيدة وذات قيمة للآخرين، وأن يحقّق إمكانياته، ويترجمها إلى حقيقة واقعة (سليمان عواشرية، ٢٠١٥: ٧).

وأشكال تحقيق الذّات تتناوب وتتغير بين شخص وآخر بحيث يفضّل شخص أن يكون أمّا مثالياً، وشخص يتوخّى أن يصبح رسّاما ماهرا، وآخر يريد أن يظهر بطلاً. ومن المستثنى في الانتماء إلى مراتب الحاجات أن يكون هناك أشخاص يرتبطون بالتّطلّعات، والمعايير الاجتماعية العليا، والقيم الرّاقية و... وبالقيم نفسها يفضّلون الاستشهاد ويفتدون لتلك القيم دون غيرها (Maslow, 1970: 46-53). إنّ تحقيق الذّات نفسه هو مسألة درجة، فليس هناك إنسان كامل. وليس من الضّروريّ أن يمتلك الشّخص كلّ الخصائص المذكورة لتحقيق ذاته (الطّوخي، ٢٠١٧: ٧).

والموت بالكبرياء، والاستشهاد، والبطولة ثلاثة مفاهيم وتصرّفات تمثّل تحقيق الذّات، وتجسّد التّحصيل، والإنجاز، والإبداع، والإفادة. وكانت لهذه المفاهيم والتّصرفات شواهد في هذا العمل الرّوائيّ، سنراها، عبر الأمثال التالية.

الموت من أجل الغاية والتصبّر عليها شيء لايدركه إلاّ الأقلّ من النّاس، ومنهم محمّد المسعود، وهو يقول: «وإذا كانَ لابدَّ مِن الموتِ، فلن أموتَ رَخيصا بلاغايةٍ... قُلتُ لنَفسي: لَيسَ أمامِي إلاّ هذهِ الطّريقُ، الخيانةُ ماتَعوّدناها، والذّلُ لن أورثُه لأبنائي مادُمتُ قَدحَرّمتُهم مِن كلّ إرثٍ. هذا الذي أنا فيه أواجهُه، والآجالُ والمَصائرُ مُقدّرةٌ مِن اللّه» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٢٨-١٢٩). هو يحرم الأولاد من الإرث ولايترك لهم تليدا، ولكن يفضّل مواجهة القدر المحتّم، ويختار طريق الموت قبل تحقيق حاجات الطّعام، والأمن، والحبّ، والاحترام. ومضى في حديثنا عن حاجة الاحترام أنّ البطل أدّى وظيفته واحترم سمعة أبناء بلاده وسمعة نفسه. لذلك كان ينتظر التّقدير الثمين. وهذه الحاجة الغريزية تتحكم عليه، إلى أن تصطبغ

www.SID.ir

Archive of SID

بالسّمو وترتفع من المادّية إلى السّماوية حيث يؤكد البطل على أنّه يتابع غاية. هذه الغاية في عقيدته تتجسّد في اختيار الموت عن الطّوع ولا عن القسر. وهو في هذ المقام لايتوقّع مكافأة إلاّ أن يواجه القدر. وهذا التطوّع خير دليل على تحقيق الذّات.

يمكن ألاّ تحدث الحاجات وفق التّسلسل، بل ومن الممكن أن يتأثّر الشّخص بأكثر الحاجات تزامنا من تأثّره بحاجة واحدة. وليس لزاما أن تحظى الحاجات بنظام تقدّميّ، وطبقيّ، وترتيبيّ خاص. ولا يقلّ الحافز في الحاجات ذات المستوى الأدنى فترة علاجها وإشباعها، غير أنّ الإنسان قد يحتاج إلى عدد من الحاجات في الطّبقة السفلى مع توجهّه البالغ إلى توفير الحاجات ذات المستوى الأعلى، بصورة متزامنة (سلطاني وآخرون، ١٣٩٥: ١٦٨).

هذا وإنّ بعضا من النّاس الذين آثروا عبر التاريخ تحقيق الذّات المتمثّل في التّفاني في سبيل الطموحات الكبيرة فكان معظمهم في عداد الطبقات الاجتماعية السّفلى، وإن لم يكن يتحقّق أيّ من الحاجات الجسدية الضّرورية لهم، بشكل كامل، قطّ (مروّتي وآخرون، ١٣٩٢: ١٤٢). ومن المفيد القول إنّ مصلحة الوطن في صخرة الجولان ليست شيئا مفروضا، بل هي شيء نابع من الذّات، وحبّ أسمى من العواطف العابرة والحاجات الآنيّة (روحي فيصل، ٢٠٠٣: ١٧٠). ومنهم بطل القصّة إذ اختار مصلحة الوطن، وهي الموت عن الطّوع، وحرّم الإرث على الأهل، وترك الجبن والذّلّ، واختار المشيئة الإلهية.

سعت الرّواية إلى إقناع القارئ برؤيا علي عقلة عرسان، القائلة إنّ مصلحة الوطن فوق مصلحة الفرد، دون أن يكون هناك تعارض بينهما. وقدتجلّى سعيها إلى إقناع القارئ برؤياها في بنية روائيّة مقنعة بشخصيّة محمّدٍ المسعودِ (روحي فيصل، ٢٠٠٣: ١٦٨).

وقيل: رغم انطباق توالي الحاجات وتسلسلها على معظم الأشخاص، توجد استثناءات. من ثمّ ينذر بعض النّاس حياته لغاية وطموح شامخ، ويتوق إلى تفدية ممتلكاته لهدف سامٍ له. وكان هناك أشخاص أضربوا عن الطّعام إلى حدّ المماّت من أجل معتقداتهم، وبهذا المنظور، أغمضوا البصر عن حاجاتهم الحيوية، مثل الحاجات الفزيولوجية، وحاجات الأمن، وأحبطوا في الحاجات ذات المستوى الأدنى ليشبعوا حاجة تحقيق الذّات (Schultz, 2005: 315). ومنهم زملاء محمّد المسعود في المحبس الإسرائيليّ. الذين أضربوا عن الطّعام ليعارضوا التّعذيب الذي يمارسه العدوّ في حقّ صديقهم؛ فنرى في مقطع من القصّة حيث يقومون بهذا العمل البطوليّ وغايتهم تحرير الصّديق: «إذن نُعلنُ الإضرابَ عَن الطّعامِ احتِجاجا على مُعاملتِهم

www.SID.ir

Archive of SID

الوَحشيةِ لمحمّدٍ المسعودِ، وعَدمَ احترامِهم حُقوقَنا كأسرى حَربٍ ... وردَّدتِ القاعةُ كلمةَ الإضرابِ بشَيءٍ مِن الأمَلِ، في الوَقتِ الذي انتَصبَ فيه جُنودُ الحِراسةِ أمامَ بابِ القاعةِ، والحِقدُ والغَضبُ يطفرانِ مِن عُيونِهم... ولم يكنِ الإضرابُ عَن الطّعامِ سَهلاً على مجَموعةٍ هَدَّها الأسرُ والسّجنُ وكانتْ تَخضعُ للاستِجوابِ، والضَّغطِ، والتَّعذيبِ. أجسامُهم كانَتْ بأمسّ الحاجةِ إلى الطَّعامِ حتّى تَتَغلّبَ على الشّروطِ اللاإنسانيةِ التي يعيشونَ فيها، ولكنّهم قَرَّروا أن ينفّذوا ذاك، مَهما كانَ الثّمنُ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٤٩-١٥١).

اختيار طريق الموت يعتبر من أعلى مراتب تحقيق الذّات. لذلك يتعهّد البطل أن يموت دون المهانة، لأنّ نفسه ليست أغلى من نفوس الآخرين الذين أسِروا، وقُهروا، وماتوا، حافظين شرف الوطن أمام العدوّ: «لن أضْعَفَ وَلن أُهِينَ شَرَفَ الْجُنْدِي، وَسَوْفَ أَمُوتُ بكبرياءٍ! لَسْتُ أَحْسَنَ مِنْ مِئَاتٍ مَاتُوا، وَلاَ مِنْ عَشَرَاتٍ أُسِرُوا وَيُعَانُونَ مِنْ الْقَهْرِ، لن أُلَوّثَ شَرَفِي وَشَرَفَ بَلَدِي أَبَدا» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٤١).

بهذا المنظور، يعتبر إيثار الموت للحياة، والتجنّب عن الخيانة، والإضراب عن الذّل، ومواجهة التّقدير اللهيّ، وحفظ الشّرف والكبرياء، مصاديق لتحقيق الذّات. وهذا يعني ترك دنية الدّنيا واختيار سموّ السّماء. ولكن التّعبير الأغلى واللفظ الجميل في هذا الصّدد هو الاستشهاد. وقيل: الاستشهاد هو من أصعب الطّرق وأخصرها نحو الكمال ويتعارض في نظرة بدائية مع حاجة الأمن، وبالتّالي مع بقية الحاجات الفقدانية (مروّتي وآخرون، ١٣٩٢: ١٤٢).

ركز عرسان على قضية الشّهادة واعتبرها المحور الأساسي، فالشهادة من الموضوعات التي تدلّ على حبّ الوطن والتّضحية في سبيله (نيازي، ١٣٩١: ٥٤). لقد وردت مشتقّات هذا التّعبير في هذه الرّواية ستّ مرّات ويتخلّله تعبير المرحوم مرّتين،كما يلي ذكره في الأمثال التالية.

يشعر البطل بأنّ الصّخرة تستغيث: «لاتَتركني يا محمّدُ. خُذْ بِيدي يا وَلدي. احمِني..اللّه والرّسول والقرآن ومَن حَملوه وطَهّرُوا لكَ الأرضَ ودافعُوا عَنها، والشّهداءُ كلّهم في صَدري، وفيَّ مِن دَمِهم أثرٌ، دافعْ عنّا جميعا» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٣٦). وتعبيره، أنّ الشّهداء في صدري وفيّ مِن دَمهم أثر، ينمّ عن حرمة الشّهيد ومنزلته العظمي في القاموس البشريّ وعرف المجتمع الإسلاميّ.

وفي مقطع من القصّة حيث نلاحظ فيه: «أرسلَ أحمدُ الحسنِ يومها إلى أهلِ الشّهيدِ طَبخةَ قَهوة وكيلو سُكر» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٤٧). وتعبير الرّاويّ بالشّهيد يقصد محمّد

www.SID.ir

Archive of SID

المسعود نفسه بتسمية مسبقة وغير مباشرة، بينما هو لايزال حيّا. ولذلك يليق أهله بتأمين الحاجات احتراما للشّهيد، وتعظيما لمقامه الشامخ، كما يتصرّف العمّ جابر لزينب التّصرّف نفسه، ويقولُ الرّاويّ عنه: «لَقد حَنّ قَلبُه على الصّغارِ وعَطفَ عليهم، وربّما دَفعَ لهَم إكراما لروحِ الشّهيدِ، وحتّى يدفعَ اللّه عَنه البلاءَ، ويكرمَه يومَ القيامةِ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٥٣).

يحلم البطل أثناء حضوره في قيد الأسر ويتفوّه: «خَطرَ لي أن نَكونَ في شوارعَ دِمشقَ الجَميلةِ فنَكونُ، نركَضُ ونركضُ، وكأنّ المدينةَ بُستانٌ لَنا، فَتحَه الأهلُ للشّهداء والمصابين مَع أسرهم...» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٧٢). يقوم البطل في خياله بتبجيل الشّهداء والمصابين والأسرى الذين فضّلوا الشّرف دون المذلّة. وفي خياله أصبحت مدينة دمشق وشوارعها بستانا من الجنّة يستضيف الشّهداء والمصابين والأسرى بالإكرام والتّقدير.

ويمجّد بطل القصة شأن الشّهداء ويقول في آخر صفحة من الرّواية، وهو يتخيل: «وزَينبُ مع بَناتِ قَريتنا... يهلّلنَ لِلفَرحِ الآتي، حَناءُ أيديهِنّ وحَناءُ الأرضِ بِدَمِ الشّهادة يمتزجُ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٧٠). ويردف قائلاً: «وسَعتْ رُوحي تُواكبُ ركبَهم مع أرواحِ سائرِ الشّهداءِ راضيةً مَرضيةً» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٧٠).

إنّ الذي يطالب الشّهادة، رغم خيبة أمله في إشباع حاجات نفسه ومن يليه من النّاس، لايمسّ مثل هذا الأمر شيئاً من سمعة الشّهادة، والتي تعتبر أصلاً نقيضا صارخا لتسلسل الحاجات البشرية وتواليها، لأنّ الافتداء يعتبر في الثّقافة الإسلامية وفي غيرها أقرب طريق للحصول على تحقيق الذّات، والتّعالي، والتّسامي (مروّتي وآخرون، ١٣٩٢: ١٤٢).

استخدم الرّاويّ تعبير المرحوم بدلاً من الشّهيد حين يصف حالة أم سليمان جارة زينب: «ولم تَعرفْ بماذا تُجيبُ أحمدَ الحسنِ عندما سَألها عَن أحوالِ أولادِ المَرحُوم وعَن زَوجتِه» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ٨٥). واستبدل الرّاويّ أيضا بتعبير المرحوم عن الشّهيد حينما حضر أحمد الحسن منزل المختارِ استطلاعا عن خبر محمّد المسعود، كما يقول: «إنّه لم يأتِ مُنكرا، لَقد فَكر بزَينبَ لأنّه اعتقدَ أنّ زَوجَه ماتَ. وكانَ قَصدُه شَريفا، أرادَ أن يجنّبها الحاجةَ، وأن يرعى أولادَ المَرحُوم وينقذَهُم مِن الجُوعِ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٥٨-١٥٩).

وأن يصف البطل نفسه في عداد الأبطال هو من مظاهر تحقيق الذّات، وفي هذا الخصوص تعابير صادرة عن الآخرين الّذين يصفونه بطلاً. وفي موقف حواريّ من الرّواية، يسمّونه بطلاً حين دخل محمّدٌ السّجن وواحد من المساجين واسمه "رياض" يقول هكذا

www.SID.ir

Archive of SID

عندما يسأل عنه وعن هويته وانتمائه: «- سُوريّ أنتَ، مِن أينَ؟/=عَريف مجُنّد محمّد المسعود عَن حُوران./ ابتسمَ وهو يقولُ مُداعِبا: الحَوارنةُ ما يقعونَ أسرى، يقتلونَ أو ينهزمونَ./ ابتسمتُ له بِدَوري، وقُلتُ مُداعِبا مِن خِلال تَعبٍ وألم واضحينِ: أو يصمُدونَ./ ضَحكَ ورَبتَ بِعَطفٍ على كتفي./-أنا أمزحُ يا بَطلُ./= أعرفُ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٣٠). نشاهد أنّ ألفاظاً تتردّد على اللسان تحكي عن القتال، والصّمود، والبطولة. وهي أعلى مراتب الحاجات الإنسانية وأغلى مظاهر لتحقيق الذّات. وقلنا سابقا إنّ المداعبة والمزاح الفلسفيّ من خصوصيات تحقّق الذّات، كما في هذا الشاهد.

وفي موقف آخر، جُرح محمّد المسعود في أثناء القتال، وأُسر، واقتيد إلى المستشفى، ثم دفع العدوّ إليه محقِّقاً من أصل عربيّ، اسمه اللّطيف، ليفاوضه على حياته وعودته إلى أولاده وزوجته في مقابل الإدلاء بالمعلومات التي يعرفها عن جيشه. وفي ظنّ المحقّق أن العجز الجسديّ الذي نتج عن مضاعفات الجروح في جسد محمّد المسعود، سيساعده في الحصول على المعلومات العسكريّة (روحي فيصل، ٢٠٠٣: ١٧٠). تساهل المحقّق في استجواب محمّد المسعود وعامله معاملة طيبة، إلاّ أنّ محمّدا لم يكترث بهذه المعاملة، فعوقب المحقّق لفشله في الاستجواب، إلى أن جعل هذا الأمر أن يحدّق بقسوة إلى محمّدٍ، يقول له: «بَطل؟! إنّني أبصقُ في وَجه كلّ الأبطالِ وكلّ البُطولاتِ، أفعلُ ذلكَ مِن أجلِ حَياتي وحَياةِ أبنائي وشَرفي، مِن أجلِ ألاّيتعذّبَ إنسانٌ بَريءٌ بسَببي؟! ثم لماذا تُريدُ أن تكونَ بَطلاً لأيّ سَببٍ ومِن أجلِ مَن؟! مِن أجلِ أرضٍ لَيستْ لَكَ، وحُكام لم يسألوا عَنكَ، وشَعبٍ لم يسمعْ بكَ؟!» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٣٦). كأنّ المحقّق يريد أن يثبّط عزائم محمّد وأن يستخفّ بإرادته البطولية، ويردف قائلاً: «... لا تَمرد ولا شَكوى، لا شَجاعة ولا جُبن، لا قُوة ولا ضَعف، لا صُمود ولا صَبر ولا تَضحية، ولا أيّ شَيءٍ مِن ذلكَ الكلامِ الفارغِ الذي تُغذّي غُرورَكَ به وتَدفعُ ثمَنَه باهظاً. أوهامٌ، أهامٌ» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٣٧). ويضيف قائلاً: «لو سَمعوا بكَ واعتبروكَ بطلاً فلن يفعلوا أكثرَ من أن يذكروا اسمَكَ في الإذاعةِ ولن يشبعَ أولادُكَ مِن ذلكَ. ثم ينسونكَ تَماما» (عقلة عرسان، ١٩٨٧: ١٣٧). وفي هذه الأمثلة بوادر من ثبط العزائم عن تعمّد يمارسه المحقّق وهو غضبان من فعل الأبطال، ويحقدهم بهذه التّعابير، ويؤزّم ضمير محمّد؛ لأنّه لم يوفّر أسباب النّجاح للمحقّق، بخيانة الوطن.

www.SID.ir

Archive of SID

النتائج

– رواية "صخرة الجولان" تحتوي على المراتب المتسلسلة من الحاجات الإنسانية الهرمية، وهي عبارة عن حاجات مثل: الجسد، والأمن، والحبّ، والاحترام، وتحقيق الذّات. يجب أوّلاً أن تُشبع الحاجات الضّرورية، ثمّ تشبع الحاجات الكمالية إلاّ أنّ القاعدة قدتعكس.

– يحتاج البطل في رفع حاجته الجسدية إلى العمل. ووجود العمل يساوي سدّ الحاجات. كأنّ أنواع الحاجات، وهي الطعام، والمعاش، واللباس، والدّراسة باتت لم تتهيأ للعائلة إلاّ أن يحصل العمل. وهذه الهواجس تجعل البطل ينتاب للمصير الذي تحتمّ على الأسرة. وكلّ ذلك ينتهي إلى الفاقة والجوع، ويبقى في مركز الأهمية من أوّل الرّواية إلى آخرها.

– الأمن، والرّاحة، والاطمئنان هي ألفاظ تليها لفظتا الموت، والدفاع. يموت البطل ليدافع عن الوطن. إنّ ذوي التجارة يستغلّون الأمن من أجل التكاثر ولايبالون بمن يجوع، فيتراوح التّعارض بين الأمن والجوع. والحاجات تختلف بين شخص وآخر في ضرورتها.

– حاجة الحبّ تتجسّد، في الشوق إلى البيت، والتراب، والقرية، وصخرة الجولان، والوطن، وزينب، والأولاد. وهناك بعدان للحبّ قديتشابكان: بعد وطنيّ وبعد أسريّ. إنّ حبّ البطل للأسرة أمر مقدّس. والوطن لايكترث بمن يكنّ له حبّا، ويضمر غدرا، إلاّ أنّه، رغم كلّ ذلك، عزيز الجانب. وهنا يمتزج شعوران لدى البطل، بين الحقد والحبّ.

– حاجة التّقدير والاحترام بنوعين. يجب أن يحترم الإنسان نفسه، ثم يحترم الآخرين. قد تلتقي حاجتان، وهما: الرّاحة من جانب، والاحترام من جانب آخر. إذا اعتزّ الإنسان بوصفه فردا مفيدا فلا مناص أن يفتخر به مجتمعه. والبطل يرقب احتراما من مواطنيه أكثر ممّا في الواقع. وهذا التوقّع لازم لمن يفتدي للوطن. ويشعرهم أنّه أدّى تكليفه؛ لكنّ هذه الحاجة تتحكم عليه، دون إشباع.

– حاجة تحقيق الذّات ترتبط بأن يقوم الشّخص بتصرّفات تكون مفيدة للآخرين. والموت بالكبرياء، والاستشهاد، والبطولة هي مفاهيم ثلاثة تمثّل تحقيق الذّات. ومأرب البطل يتجسّد في اختيار الموت دون أن يتوقّع جزاءً جميلاً إلاّ أن يلاقي القدر المحتّم. والتعبير الأغلى في هذا الصدد هو الاستشهاد. والبطولة من مظاهر تحقيق الذّات، أيضا.

– لا تتحقّق الحاجات الأربع الأولى إلا تحقيق الذّات. ولاتوجد حاجة إلى المعرفة والفهم، ولا الحاجات الجمالية، في هذه الرّواية.

www.SID.ir

Archive of SID

المصادر والمراجع

١. رايك، ثيودور (٢٠٠٠م). الحبّ بين الشهوة والأنا. ترجمة: ثائر ديب، ط ٢، اللاذقية: دار الحوار.

٢. روحي فيصل، سمر (٢٠٠٣م). الرّواية العربية: البناء والرّؤيا. دمشق: اتّحاد الكتّاب العرب.

٣. سلطاني، محمدرضا؛ وآخرون (١٣٩٥ش). «درآمدي بر نقد نظريه سلسله مراتب نيازهاي مازلو». *فصلنامه مطالعات رفتار سازماني*، السنة ٥، العدد (التوالي ١٧)، صص١٤٥-١٧٢.

٤. سليمان عواشرية، السّعيد (٢٠١٥م). الأسرة وأثرها في تعزيز الانتماء للوطن: دراسة ميدانية بولاية باتنة. الجزائر: جامعة باتنة.

٥. الطّوخي، طه عبدالباقي (٢٠١٧م). «نظرة على هرم "ماسلو" للحاجات الإنسانية». *مجلة النّفس المطمئنّة*، الجمعية العالمية الإسلامية للصّحة النّفسية، السّنة ٣٢، العدد ١٢٤، صص٦-٨.

٦. عُقلة عُرسان، علي (١٩٨٧م). صخرة الجولان. ط ٢، دمشق: اتّحاد الكتّاب العرب.

٧. القطناني، علاء سمير موسى (٢٠١١م). الحاجات النّفسية ومفهوم الذّات وعلاقتهما بمستوى الطموح لدى طلبة جامعة الأزهر بغزّة في ضوء نظرية محدّدات الذّات. رسالة ماجستير، جامعة الأزهر بغزّة، فلسطين، كلية التّربية، قسم علم النّفس.

٨. مروتي، سهراب؛ وآخرون (١٣٩٢ش). «نقد وبررسي سلسله مراتبي بودن نيازهاي انسان در نظريه مازلو، با رويكردي بر آيات قرآن كريم». *مجله پژوهش‌هاي علم ودين*، پژوهشگاه علوم انساني ومطالعات فرهنگي، السنة ٤، العدد ٢، صص١٢٩-١٤٦.

٩. نيازي، شهريار؛ وآخرون (١٣٩١ش). «الاتجاه القوميّ في مسرح علي عقلة عرسان». *مجلة دراسات الأدب المعاصر*، السنة ٤، العدد ١٥، صص٤٣-٦٣.

10. Schultz, Duane P. & Schultz, Sydney Ellen (2005). ***Theories of Personality***. Thomson Wadsworth, University of South Florida, 8th edition.
11. Maslow, Abraham H (1970). ***Motiyation and Personality***. Harper & Row Pablishers.
12. Novitović, Olivera, and others (2017). ***Motiyation Models***. 10th International Scientific Conference, "Science and Higher Education in Function of Sustainable Development", 06-07 October 2017, Mećavnik – Drvengrad, Užice, Serbia, PP: 6-13.

www.SID.ir